

النخلة في وجدان الشاعر سلطان بن خليفة الحبتور

جمعيّة اصدقاء النخلة
www.huna-hamsat.com | ★

فالنخلة تمثل موضوعاً هاماً رئيساً ليس في التراث العربي الإسلامي وحده، بل في التراث الديني والعقدي لكثير من المجتمعات، فقد تبوّأت النخلة مكاناً مرموقاً في الحضارات القديمة كما في بابل وآشور، وأصبحت رمزاً اجتماعياً ودينيّاً في طقوس ومعتقدات العديد من الديانات التقليدية الماضية فكانت رمزاً للخصب والنماء والعطاء، وكانت تعتبر في فترة الجاهلية كائناً مقدساً يطوف حولها الناس، ويقدمون له القرابين. وفي التراث الإسلامي ورد ذكرها في بعض السور القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، وفي العادات والتقاليد والمعاملات، كما حظيت بمكانة سامية في الديانات السماوية الأخرى، فمن الرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فاستطاع ألاّ تقوم حتى يغرسها فله بذلك أجر)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (أكرموا عمّتكم النخلة)، وفضلاً عن كل ذلك قد احتلت حيزاً كبيراً في الآداب السامية بعامّة وفي الأدب العربي بخاصة حيث اهتم بها كتاب وشعراء وعشاق الأدب فصيحة وعامية، ورسمية وشعبية، وجعلوها مادة طيبة ومحبة لإبداعاتهم الأدبية. ولم يقتصر هذا الدور

تميز الشاعر سلطان بن خليفة الحبتور بعلاقته وحبّه واهتمامه الكبيرين بهذه الشجرة المباركة من خلال الحياة العامة التي عاشها في كنف الآباء والأجداد كما كان للتشجيع الخاص من الوالد المغفور له بإذن الله تعالى الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رحمه الله أبلغ الأثر حيث أرسى في نفسه علاقة حميمة مع هذه الأرض الطيبة ومن ثم مع نخيلها الباسق والشامخ شموخ أبنائها على مر التاريخ

للنخلة اهتماما كبيرا في الإمارات على المستويين الرسمي والشعبي، وهو نوع من الوفاء الذي تميز به ابن الإمارات لهذه الشجرة الكريمة، رفيقة الإنسان على هذه الأرض في أيام الشدة، فكان حري به أن يرد لها الكرم، في أيام الرخاء لذا نجد تميز الشاعر سلطان بن خليفة الحبتور بعلاقته وحبّه واهتمامه الكبيرين بهذه الشجرة المباركة من خلال الحياة العامة التي عاشها في كنف الآباء والأجداد كما كان للتشجيع الخاص من الوالد المغفور له بإذن الله تعالى الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رحمه الله أبلغ الأثر حيث أرسى في نفسه علاقة حميمة مع هذه الأرض الطيبة ومن ثم مع نخيلها الباسق والشامخ شموخ أبنائها على مر التاريخ.



أن الخوص اليابس كان يستخدم لصناعة خصائف - أكياس - التمور. ومن الجريد تصنع الشاشة وهي قوارب الصيد الصغيرة ، ومن الجريد الأخضر تصنع القراقير شباك صيد الأسماك) ، أما الخواص الأخضر فتصنع منه الحصر المفروشة والمخاريف، والسراريد والمكانس، والمجاب والمهاف ، وكل أثاث البيت وأدواته ، وتستخدم جذوع النخيل كأعمدة (للعريش) وجمعها (عرش) والخيام ولمساندة النخيل المعمرة (العوانات) وأعمدة مرتفعة (للبوازر) التي تنزف المياه من الآبار بواسطة الثيران ، ويستفاد من ليف النخيل في صنع الحبال لبوش والركاب ، والمواشي والأبقار وكذلك للسفن ، ويستفاد من كرب النخيل لاستخدامها كعلامات (بوبات) لشباك الصيد والأليخ وتضاف مع الجريد لصناعة الشاشة، والباقي وقود أساسي للطبخ.

لم يقتصر اهتمام أهل الإمارات بالنخلة على الماضي دون الحاضر، أو على المجتمع الريفي التقليدي دون المجتمع الحديث والمعاصر، فقد جعل المغفور له بإذن الله تعالى صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس الدولة النخلة أساساً لمشروعه البيئي والزراعي منذ أن كان حاكماً للمنطقة الشرقية، ومنذ أن بدأ في إرساء الدعائم الحضارية لدولة الإمارات الحديثة منطلقاً من مدينة العين حيث قاد نهضة زراعية، وبيئية مشهوداً لها على نطاق دولي. ولم تصرف الثروة النفطية أنظار القيادة السياسية عن الاهتمام بالزراعة، فما يزال أهل الإمارات قادة وشعباً يفاخرون بكثرة نخيلهم وجودة تمورهم.

وبعد التوسع الهائل في زراعة النخيل وإنتاج التمور ثم إنشاء مصانع تعليب التمور بغرض توفيرها طيلة أيام العام في عبوات بأحجام مختلفة ومناسبة تصلح للاستهلاك المحلي والتصدير، كما تم إنشاء المختبرات لإكثار النخيل وعلاج أمراضها والعناية بها بصورة علمية.



أما دولة الإمارات العربية المتحدة فقد اشتملت اللقى الأثرية في بعض مناطق الدولة على بقايا أشجار النخيل والثقاف والسمر يرجع تاريخها للألفية الثالثة قبل الميلاد، إلا أن الأهمية القصوى للنخيل في تلك المنطقة ظهرت بعد نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد، فمنذ تلك الفترة شكل النخيل معلماً هاماً في حياة وتراث أهل الإمارات، وذلك بعد أن عرفوا الأساليب والتقنيات التقليدية المتصلة بنظام الري المعروف بالأفلاج التي مكنتهم من استخراج المياه من جوف الأرض وجيرانها في قنوات تحت السطح وفوقه بصورة يسرت لهم التوسع في النخيل، فتمكنوا من زراعة بعض الخضروات والفواكه التي يتعذر عليها أن تثبت وتثمر في هجير الشمس. وبذلك أصبحت هناك بيئة ريفية زراعية، وأحدثت النخلة تغيرات اجتماعية واقتصادية لم تعدها تلك المنطقة من قبل. ومن المناطق التي شهدت - ولا تزال - كثافة وإناساعاً في زراعة النخيل مناطق العين ورأس الخيمة والفجيرة، ومنطقة الذيد بإمارة الشارقة، وغيرها من المدن والسهول والواحات.

بالنسبة لاستخدامات النخيل في بيئة الإمارات، فكثيرة جداً بدءاً من السعف وجريد السعف الذي يُعد أساساً لبناء (العرش) و (الخيام) التي كانت تمثل النسبة الكبيرة من بيوت الأهالي في المدن والقرى) ، كما

على الإبداع الأدبي بل تخطاه فشمّل مجال الإبداع الفني التشكيلي الذي جعل النخلة من أهم (الموتيفات) والزخارف المستخدمة في الفنون العربية والإسلامية.

تأتي تلك الأهمية القصوى للنخلة في بعض الأقطار العربية، وبعض المجتمعات التقليدية في البيئة الريفية على وجه التحديد، لقدرتها الفاتحة على إمداد تلك المجتمعات بالمتطلبات الأساسية والضرورية للحياة. وهي تشبه الجمل في ذلك، وتوفر للمجتمعات البدوية الصحراوية. وهي تشبه الجمل في قدرتها على الصمود في البيئة الجافة. وتمكنت النخلة من إمداد العديد من المجتمعات التقليدية بالغذاء والدواء والمسكن والأواني، والأدوات والمعدات، ووسائل الحركة والانتقال والتواصل الحضاري، كما يسّرت لهم الموارد والوسائل التي مكنتهم من مزاوله المهن والحرف التي كسبوا منها رزقهم وقوت أبنائهم، ولكل ذلك كانت النخلة أساساً لنمو المستوطنات البشرية، ووفرت لسكان تلك المستوطنات أساليب الحياة الكريمة، كما أسهمت في ازدهار حياتهم الاجتماعية.

تبدو أهمية النخلة وقدرتها على تلبية الاحتياجات الضرورية للإنسان في رواية عن أبي عمرو بن العلاء عن النخلة على لسان ورجل عُماني التقاه في مكة - وجهة عمان كانت تشير إلى سلطنة عُمان ودولة الإمارات العربية المتحدة حالياً - فقال أبو عمرو:

(لقيت أعرابياً بمكة فقلت له ممن أنت؟ قال أسدي، قلت: ومن أيهم؟ قال: نهدي، قلت: من أي البلاد؟ قال: من عمان. قلت: فأني لك هذه الفصاحة؟ قال: إنا سكننا قطراً لا نسمع فيه ناجحة التيار، قلت: صف لي أرضك. قال: سيف أفيح، وفضاء صحصح، وجبل صردح، ورمل أصبح، قلت: فما مالك؟ قال: النخل، قلت: فأين أنت من الإبل؟ قال: إن النخل حملها غداء، سعفها ضياء، وجذعها بناء، وكربها صلاء، وخواصها وعاء، وفروها إناء).